جامعة محمد الشريف مساعدية –سوق اهراس–

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية د. جهيدة بوعزيز

مقياس الدولة والمجتمع في العصر الحديث سنة أولى ماستر تاريخ المغرب الحديث

المحاضرة الأولى: التشكيلة القبلية للمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني

يتفق جمهور المؤرخين حول بنية المجتمع الريفي في الجزائر خلال العهد العثماني، ويقسمونه إلى أربع مجموعات رئيسية، معتمدين في ذلك على مجموعة من المصادر المؤرخة للفترة، منها ما كتبه المستشار الفرنسي لخدمات الشؤون المركزية للسكان الأصليين *Louis Rinn*[1] صاحب كتاب مملكة الجزائر، مصدرنا الأساسي في دراسة هاته المجموعات الأربعة، والذي قام بدراسة كل مجموعة على حدى، كما قام بإحصاء كل المجموعات الريفية وخلص في كتابه إلى إحصاء عدد فرق كل مجموعة في البياليك الأربعة، نأخذ منها ما يخص بايلك الشرق كنموذج لهاته المحاضرة كما يلي:

اسم الجماعة	قبائل المخزن	قبائل الرعية	القبائل المتحالفة	القبائل المستقلة
عدد المجموعات في بايلك الشرق	47	14	25	138

من خلال هذا الجدول تظهر لنا كثافة سكان الريف القسنطيني مقارنة بالبياليك الأربعة الأخرى[2]، كما يتضح لنا جليا العدد الكبير للقبائل المستقلة بالبايلك مقارنة بالمجموعات الأخرى،

---

[1] LOUIS RINN: Le Royaume D'Alger sous de dernier dey, Alger,1900, p130.

[2] يقدر عدد المجموعات بدار السلطان بـ 73 مجموعة، وفي بايلك التيطري 62 مجموعة، أما بايلك وهران فتقدر بـ 157 مجموعة، لمزيد من الإطلاع أكثر انظر: LOUIS RINN: OP.CIT, p 130.

وهو الأمر الذي يفسر كثرة الصراعات بين هذه المجموعات والسلطة المركزية من جهة، ويوضح تلك الاستقلالية التي كان البايلك يعرفها من جهة أخرى. وفيما يلي توضيح لكل مجموعة على حدى.

أولا_ قبائل المخزن: هي قبائل ذات صبغة فلاحية، عسكرية وإدارية، لما تقوم به من أعمال، وهي لا تعود في أصولها إلى نسب واحد بل هي تجمعات سكانية ذات تكوين اصطناعي، منهم العبيد وعرب الصحراء وسكان الهضاب والجبال.[3] وتشكل قبائل المخزن القوة الأساسية للإدارة العثمانية في الأرياف، فهم يساهمون بالقسط الأكبر في دعمها وبقائها.[4]

هذا، وتستمد قبائل المخزن وظائفها الحربية والإدارية من تقاليد التبعية والولاء التي طبقها الموحدون واتبعها فيما بعد الزيانيون بتلمسان وبنو حفص في بجاية وقسنطينة، وقد عمل الأتراك على إبقاء هذا النوع من القبائل المتعاونة عندما تيقنوا من أهميتها في استخلاص الضرائب ومعاقبة المتمردين منذ حكم الباشوات، ثم وسعوا صلاحياتها في القرن الثامن عشر فأصبحت تشارك في المحلات الفصلية والمحلات البعيدة وذلك لقلة عدد الجند التركي الذي لم يكن يزيد في أوقات السلم عن 4000 جندي، وفي أوقات الحرب عن 12000 محارب بما فيهم الكراغلة وفرق زواوة، بينما أصبحت قبائل المخزن توفر للبايلك قوة محاربة تصل في بعض الأحيان إلى 30000 رجل منهم 15000 فارس ومحارب.[5]

ويذكر الباحث "صالح عباد" أن قبائل المخزن كانت تلعب الدور الرئيسي في شؤون الحرب، كما كانت تتواجد في المناطق الاستراتيجية حول الأبراج والحصون لدعم الحاميات التركية كما هو الحال عند فرق الزناتية التي تراقب ممر رأس العقبة بين قالمة وقسنطينة، وبالقرب من الأسواق ومطامير البايلك مثل سوق العثمانية الذي تراقبه دايرة الصحراوية ومخزن بوصلاح[6]. بالإضافة إلى ذلك كانت فرق المخزن في بعض الأحيان ترفع المكوس على أعمال الآخرين وضرائب

---

[3] ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص ص 105_106.

[4] صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1830_1514، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2007، ص 319.

[5] نصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 106.

[6] صالح عباد: المرجع السابق، ص ص 319-320.

مرتفعة تثقل كاهل الخماسة الذين كثيرا ما استعبدوا لعجزهم عن آداء ديونهم.[7]

هذا وينعتهم ابن العطار بأنهم "أهل غلظة وفظاظة لكون غالبهم من أهل البادية فلا يراعون حق السلطنة، بل تحملهم غلظتهم على العنف ومجاوزة الحد"[8]، في حين يتحدث الشيخ الورثيلاني عن ولاء القبائل المخزنية للسلطة المركزية وبطشها بالرعية بقوله:" فريق من القرية وهو المتمكن المعتصم بآلي الولاية من الترك والمتمسك بجاههم، إذ من تمسك بهم تفرعن على غيره".[9]

ونذكر من بين فرق المخزن بالبايلك مخزن الحراكتة ومخزن أولاد عبد النور الذين يوفرون حوالي 1000 فارس للبايلك، ومخزن تلاغمة الذين يوفرون حوالي 100 فارس، بالإضافة إلى مخزن عرب شتائية الذي كان شيخهم المسؤول عن ضمان المراسلات مع الصحراء ومراقبة البدو، وغيرهم الكثير من القبائل المخزنية.[10]

ويذكر RINN أن مخزن الحراكتة أو قائد العواسي كان يتكون لوحده من أربع مجموعات، أولاد سعيد و أولاد سيوان وأولاد خنفر وأولاد عمارة، ويكونون 32 قبيلة صغيرة، وجميعهم كانوا عسكريين وملازمين لقائد العواسي، هذا الأخير الذي كان دائما أحد أقارب الباي أو أحد كبار الشخصيات بالبايلك، حيث كان تحت امرته حوالي 300 فارس، وقد يصلون إلى حوالي 4000 فارس تقريبا.[11]

وبالتالي فهي تشكل حلقة وصل بين السكان في الأرياف والحكام في المدن حتى ارتبطت بها أنظمة الحكم، وأصبح امتداد نفوذ الدولة داخل البلاد يقاس بمدى نشاط هذه القبائل،[12] ومقابل هذه الخدمات كانت قبائل المخزن تحظى بامتيازات من طرف سلطات البايلك كالإعفاء من الضرائب الإضافية والاكتفاء بتقديم بعض المساهمات العينية الخفيفة التي لم تكن تتجاوز سدسيّ المحصول وفي بعض الأحيان لا تتعدى حصان واحد وبعض الخراف مع دفع الضريبة الشرعية

---

[7] نوشي وآخرون: المصدر السابق، ص 209.

[8] أحمد بن المبارك ابن العطار: المصدر السابق، ص 49.

[9] جميلة معاشي: الإنكشارية، ص 84. نقلا عن، الحسين الورثيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار.

[10] LOUIS RINN : OP.CIT, 85 .

[11] Ibid , p 84 .

[12] نصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ص 210.

ـ الزكاة والعشور ـ زيادة على تلقي قبائل المخزن المنح والتجهيزات مجانا من الدولة كالسلاح والمؤونة ووسائل النقل وغيرها[13].

ثانيا_ قبائل الرعية: هي أضعف حلقة في سلسلة المجتمع الريفي، لا يمكنها شقُ عصا الطاعة لأنها محصورة بين مراقبة قبائل المخزن وتهديد فرق المحلة بهجمات مباغتة، كما حُظر عليها كل أنواع الأسلحة كشراء البنادق واقتناء البارود، وتتكون من المجموعات السكانية الخاضعة مباشرة للبايلك.[14] وقد كانت قبائل الرعية تتمركز في المناطق السهلية الداخلية كقبائل عين مليلة، ميلة، سطيف، واد زناتي، المسيلة، والعلمة، عنابة وسكيكدة، إضافة إلى قبائل عامر الشراقة وعامر الغرابة والسقنية والدريد[15]، بالإضافة إلى قبائل تبسة وأولاد دراج وأولاد إبراهيم والمطارفة بالمسيلة وغيرهم[16].

وقد عاشت هذه القبائل في ظروف صعبة جدا تميزت بالتعاسة والحرمان والبؤس وفي الوقت نفسه كانت مصدر ثروة لبايلك الشرق، فهي التي تتحمل كل الأعباء الضرائبية الثقيلة، هذه الأخيرة التي لطالما استحدثت حسب متطلبات البايلك.[17] كما أُرغمت على بيع محاصيلها الزراعية بأسعار زهيدة، ومُنع عنها الاتصال بالقبائل المعادية للبايلك، ووُضع على رأس القبائل الكبيرة قياد من الأتراك والكراغلة وشيوخ من العائلات المتعاملة مع البايلك. كما أدى الضغط المتزايد الذي كانت تتعرض له إلى تفككها فلم تعد تعتمد على تجانسها وتلاحمها على الأصل المشترك والانتساب العرقي، بل أصبح انسجامها وتلاحمها يرتكز على الظروف المعاشية ومعاملاتها مع الحكام[18].

---

[13] ناصرالدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص ص 106_107.

[14] نفسه، ص 107.

[15] أرزقي شويتام: المجتمع ، ص 186.

[16] LOUIS RINN: OP.CIT, pp 90–93.

[17] فلة القشاعي: النظام الضريبي...، المرجع السابق، ص 129.

[18] نصرالدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 108

ثالثا_ قبائل الأحلاف: هي القبائل التي تتعامل مع البايلك عن طريق شيوخها وزعمائها المحليين الذين أصبحوا بحكم العادة والعرف يتوارثون حكمها معتمدين في ذلك على نفوذهم الديني أو كفاءتهم الحربية أو أصالة نسبهم، وقد غلب على هذه العائلات الطابع الحربي في بايلك الشرق الجزائري {الأجناد}، مثلها في ذلك مثل القبائل المتحالفة في جنوب بايلك التيطري، أما القبائل المتحالف في بايلك الغرب فقد غلب عليها الطابع الروحي {عائلات المرابطين}، في حين اعتمدت القبائل الحليفة بمناطق جرجرة والبابور والصومام في فرض زعامتها على أصولها العريقة {الأشراف} وامتثالها لرأي الجماعة.[19]

لذلك فإننا نجد سكان هذه القبائل في طاعة شيوخهم، وإن كانت طاعتهم للشيوخ لا تُقارن بطاعتهم للمرابط وهو الأمر الذي أكده "حمدان خوجة" قائلا:" وعلى الرغم من عدم قانون يسوون به خلافاتهم ويكبحون به جماحهم، وبالرغم من أنهم لا يقبلون الخضوع لأي سلطان، فإن طاعتهم للمرابط طاعة لا يمكن تفسيرها، وأما الشيوخ فإنه لا يكاد يكون لهم تأثير إذا قارناهم بالمرابط".[20]

هذا، وقد أحصاهم LOUIS RINN بـ 25 مجموعة ببايلك الشرق، نذكر منهم قبيلة المقراني العريقة بمجانة، وقبائل المعاضيد بالمسيلة، وقبائل أولاد حناش ببرج بوعريريج، والمشيخات الوراثية بفرجيوة وزواغة وبلزمة وغيرهم.[21] وقد ساعدت طبيعة الشرق الجزائري الجبلية على تزايد نفوذ هذه المجموعات القبلية الكبرى حتى أصبحت تسيطر على ثلثي بايلك الشرق فاضطر البايات إلى التعامل معها والاعتراف بزعامة شيوخها مثل مشيخات الحنانشة والنمامشة والحراكتة وقصر الطير جنوب سطيف وأولاد بوعزيز ببلزمة وأولاد بوضياف بالأوراس وأولاد قاسم بقسنطينة وغيرهم.[22]

وفي هذا الصدد يذكر الشيخ "ابن العطار" بأن السلطة المركزية أقرت بأن حكم هذه المشيخات كحكم البايات أنفسهم، وذلك بعد الواقعة التي وقعت بينم وبين هاته المشيخات زمن

---

[19] ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 108.

[20] حمدان خوجة: المصدر السابق، ص 18.

[21] LOUIS RINN: OP.CIT, pp 93– 101.

[22] ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: المرجع نفسه، ص 108.

حسين بن صالح باي في وادي القطن الواقع بين ميلة وقسنطينة قائلا:" ووقعت بينهم {البايات} وبين العرب {سكان الريف} وقائع عظيمة أعظمها وقعة وادي القطن بين ميلة وقسنطينة، ... ثم وقع بينهم صلح بأن يكون الترك بقسنطينة ويكون تصريف الوطن بينهم أثلاثا، ثلثه لابن علي شيخ العرب، وثله لشيخ نجع الحنانشة، وثلثه لحاكم الترك، وتعاهدوا على هذا واصطلحوا عليه".[23]

ومن هنا يظهر لنا أن القبائل الحليفة حتمت على السلطة المركزية الاعتراف بزعامتها على مناطقها نتيجة لنفوذها الواسع في البايلك، في حين فضلت القبائل الممتنعة الاستقلال عن السلطة الحاكمة، الأمر الذي أدى بهما إلى صراع شبه دائم من أجل التبعية والخضوع.

رابعا_ القبائل المستقلة {الممتنعة}: وهي القبائل التي تعيش في شبه استقلال عن البايلك وممتنعة عن دفع الضرائب ومنه أخذت تسميتها، يصنفها الفرنسي LOUIS RINN على أنها أكثر القبائل وأكبرها في بايلك قسنطينة، إذ تمثل حسبه 138 مجموعة من أصل 224 مجموعة بالبايلك.[24] ومرد ذلك إلى الطبيعة المميزة للبايلك {جبلي، تلي وصحراوي} مثل مناطق الشمال القسنطيني وجهات جبال البابور والأوراس ونواحي وادي سوف وريغ بالصحراء، وقد ساعد سكان هذه الجهات على الامتناع عن سلطة البايلك صعوبة مواطنها وعزلتها الطبيعية وبُعدها عن مركز السلطة ومواطن قبائل المخزن.[25]

هذا وقد حاولت السلطة المركزية أن تحد من استقلاليتهم وترغمهم على مهادنتها ودفع الضرائب بعدة طرق كتنصيب الحاميات وإقرار عشائر المخزن في الأماكن المهمة التي تتحكم في الأقاليم التي تعيش فيها هذه المجموعات السكانية المستقلة، كما قامت بالتحكم في الأسواق الأسبوعية والموسمية الواقعة بالقرب من مواطنها، وعندما تصبح هذه الطرق غير مجدية فإن الحكام يلجئون إلى استعمال القوة لتدمير الدشر الحصينة واتلاف الأمتعة والأقوات حتى تضطر القبيلة المتمردة تحت وطأة الظروف الاقتصادية إلى المهادنة والخضوع.[26]

---

[23] ابن العطار: المصدر السابق، ص 56.

[24] LOUIS RINN OP. CIT, p 130.

[25] فلة موساوي القشاعي: النظام الضريبي...، المرجع السابق، ص 142.

[26] نصرالدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص ص 109- 110.

المحاضرة الثانية: النظام الجبائي والمجتمع

الضريبة من أهم المصادر المالية للدولة نظرا لضخامة الأموال التي توفرها للخزينة العامة، وتُعرف بأنها فريضة جبرية، بمعنى أن الخاضعين لها ليس لديهم خيار في دفعها من عدمه بل أنهم ملزمين بآدائها دون النظر إلى رضاهم أو عدمه، وتمارس الدولة سلطتها في فرض وتحصيل الضريبة كما أنها تقوم بتحديد وعاء الضريبة وقدرها وأسلوب تحصيلها.[27]

هذا، وقد عانى اقتصاد الايالة الجزائرية أواخر العهد العثماني من التذبذب المستمر، ففي الوقت الذي اختل فيه توازن الأسطول البحري الجزائري أمام الأساطيل الأوربية، زادت فيه مطالب البايات الذين اشتهر معظمهم بالجشع والتبذير، إضافة إلى نقمة الجهاز الإداري على شح عائداتهم المالية، بل أن سلطة الباي وحياته أيضا متوقفة على مدى استطاعته في اشباع جشع الداي وحكومته[28].

ولعل هذا ما جعل سلطة البايلك تتوجه بأنظارها نحو الداخل مجبرة سكان الأرياف على دفع أنواع عديدة من الضرائب الشرعية منها والمستحدثة التي استحدثها البايلك بغض النظر عن الأحوال المعيشية لهذه الشريحة الاجتماعية التي زادت سوءً مع اتساع سلطة البايلك داخلها، ومن تلك الضرائب نذكر:

أولا_ الضرائب الشرعية:

وهي تلك الجبايات التي تمس الإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية بالريف، وتخضع لأحكام الشريعة الإسلامية، وتتمثل أساسا في ضريبتي العشور والزكاة التي تعتبر من التكاليف الشرعية القديمة. وكانت العشور تستوفي على الحاصلات الزراعية، وتحدد حسب الزويجات أو الجابدات،[29] حيث فُرض على كل محراث يجره ثوران حمولة بعير من القمح و أخرى من الشعير.[30] ويشرف عنها قائد جبري الذي يقوم بجولتين في قطاعه أحدهما في الخريف والأخرى

---

[27] شريف حجازي: المالية العامة، ص 35.

[28] _ وليام شالر: المصدر السابق، ص 46.

[29] جابدة : هي أرض زراعية يحرثها ثوران وهي ما يوازي 8 او 10 هكتارات.

[30] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 144.

بعد الحصاد لتقدير المحاصيل، وتحدد الكمية حسب أهمية هذه المحاصيل، وذلك بحضور قائد القبيلة وشيخ الدوار والفلاح المعني بالأمر.[31] هذا وتشكل هذه الضريبة مداخيل أساسية للبايلك لأن ثلث الأراضي الزراعية كانت ملكيات خاصة تخضع لهذا النظام وتوفر لمخازن الدولة كل سنة 20762 قيسة[32] من القمح والشعير.[33]

أما الزكاة فهي ضريبة شرعية تجب على المواشي بأنواعها كالأغنام والجمال والأبقار، فتأخذ رأس عن عشرة من الأغنام، وجملا عن خمسة وعشرين جمل، وبقرة عن ثلاثين بقرة، لكنها أضحت تخضع لقدرة وإمكانية أصحاب القطيع، فلا يُلتزم فيها بالنسبة ولا تُؤخذ بالنصاب المحدد لها. فتوسع فيها متولو الجباية بحيث أصبحت تُؤخذ على ما يُوفره القطيع من صوف وزبدة وجلود، وبعض المنتجات النوعية كالعسل والشمع والتمر، ولعل هذا التوسع في ضريبة الزكاة هو الذي جعلها تُعرف بأسماء المواد الأولية التي تستخلص منها، الأمر الذي جعلها تدمج في مطالب وجبايات أخرى في البايلك. هذا ما أحدث إلتباسا في وضع الزكاة وجعل بعض الدراسات الفرنسية تذهب إلى القول بأن ضريبة الزكاة في الجزائر العثمانية لم تكن موجودة أصلا وفي أحسن الأحوال لم تعرف التطبيق في أغلب الجهات،[34] ولعل أبرز دليل على وجود هذه الضريبة هو ظهور نوازل عديدة فيها على أنها تؤخذ من أصحاب الماشية لتَعلُق الزكاة بها، مثل هذه النازلة التي تقول أنه إذا سُرقت الماشية فعلى الغاصب عقوبتان عقوبة غصبها وعقوبة منع زكاتها[35].

---

[31] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي ...، المرجع السابق، ص 89_90.

[32] القيسة أو الكيلة وحدة قياس مستعملة للحبوب في أغلب الجهات الجزائرية، وهي تقارب الصاع وتقدر بـ 100 كلغ من الحبوب. أنظر، ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الفترة الحديثة، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2001، ص 89.

[33] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي ...، المرجع نفسه، ص 84.

[34] ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية ... ، المرجع نفسه، ص 323.

[35] محمد بن عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص27.

ثانيا_ الضرائب الإضافية:

1°_ اللزمة:

ضريبة تدفعها قبائل الرعية المغلوبة على أمرها، تتراوح كميتها حسب المناسبات، وذلك بتكليف شيوخ الدوابر في البوادي بجمعها،[36] وقد تُلتزم بها بعض القبائل بالمناطق الصحراوية أو الجهات الجبلية، وفي هذه الحالة تعوض ضريبة العشور والزكاة التي يتعذر دفعها في تلك المناطق البعيدة، ولهذا أصبحت تشكل مداخل عينية ونقدية وفيرة للخزينة. ويقدر مجموع ما تدفعه كل من قبائل بجاية وساحل البابور وفرجيوة وميلة 122055 ريال بوجو.[37]

2°_ الغرامة:

تُفرض على القبائل الممتنعة أو البعيدة، والتي يعتمد سكانها أساسا على الرعي، وهي تأخذ في أغلب الأحيان من المنتوجات المحلية، وعند الضرورة تسدد نقدا وتتنوع بتنوع إنتاج القبائل التي تلتزم بدفعها، فقبائل الساحل بجهات سكيكدة، البابور، القرقور وزمورة غالبا ما تلتزم عند دفع الغرامة بتقديم الأبقار والبغال والخشب، أما قبائل شطابة والهضاب العليا بجهات السقينة وأولاد سلام تغرم خاصة بكميات من العسل والزبدة. وبنواحي السباخ حيث بحيرات الملح كانت قبائل الزمول تساهم بكمية من الملح وهي عشر ما كانت تستخرجه من الترسبات الملحية،[38] أما قبائل توقرت فتسدد الغرامة في شكل هدية مؤلفة من 45 عبد من رقيق السودان سنويا يتوزعون كما يلي {ورقلة 25 عبد، توقرت 16 عبد، وتماسين 4 عبيد}[39]. وكان مجموع ما تدفعه القبائل الصحراوية البدوية في بايلك الشرق كل سنة يعادل 80970 سكة، أما العشائر التي تعتمد على الرعي مثل الحنانشة وأولاد سيدي يحي بن طالب والنمامشة، فتفرض

---

[36] ناصرالدين سعيدوني: النظام المالي....، المرجع السابق ص ص 96_97

[37] فلة القشاعي: النظام الضرائبي...، المرجع السابق، ص 64.

[38] نفسه، ص67.

[39] ناصر الدين سعيدوني: ورقات، ص 481.

عليها الغرامة مرة واحدة،[40] فالنمامشة مثلا تدفع عادة 3000 خروف سنويا ومثلها الحراكتة التي تسدد في شكل غرامة 1000 خروف.[41]

3°_ الخطية والضرائب الخاصة:

تُفرض أحيانا على بعض القبائل كدليل على خضوعها لسلطة الباي، فتلتزم بها القبائل الثائرة المتمردة عند إخضاعها أو طلبها الأمان عوضا عما صدر عنها من مخالفة وعصيان. كما تفرض مقابل الجنح والمخالفات التي يرتكبها أفراد القبائل بصفة فردية أو جماعية، وفي حالة عدم التعرف على الجاني فإن شيخ الدوار أو قائد القبيلة يلتجئ عادة إلى فرض خطية جزافية على مجموع أفراد العشيرة لعدم التعرف على مرتكب المخالفة[42].

وهناك أنواع كثيرة من الضرائب،[43] نذكر منها ضريبة الغفارة التي تضمن للأعراش حق الإقامة والتملك وتدل على التسجيل بالحالة المدنية في تلك الفترة.[44] ورسوم التولية أو حق البرنوس التي تدفع كهدية بمناسبة تسلم الشوخ الخلعة رمزا لإسناد المنصب وتحديده. إضافة إلى مهر باشا وهي إعانة يساهم بها السكان في نقل هدايا الدنوش إلى الجزائر ففي بايلك قسنطينة يتراوح بين 600 الى 700 حصان، ورسوم التولية "الفرح"، وهي بمثابة رمز للفرح

---

[40] ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية...، المرجع السابق، ص 304.

[41] فلة القشاعي: النظام الضرائبي...، المرجع السابق، ص67.

[42] نفسه، ص68.

[43] للتعرف على معظم أصناف الضرائب التي كانت تدفعها الأرياف القسنطينية في الفترة العثمانية. أنظر، فلة القشاعي: النظام الضريبي في الريف القسنطيني، المرجع السابق.

[44] عقاب بلخير: سيدي حملة وأبنائه، المسيلة، د.ت, ص 20.

والابتهاج بتولية الباي الجديد أو بمناسبة الأحداث السعيدة، وكانت توفر للخزينة مداخيل هامة وبلغت في بايلك قسنطينة 20 ألف بوجو[45].

4°_ ضريبة الضيفة " ضيفة العادة في الشرق الجزائري"

وهي ضريبة تختلف عن الضرائب السابقة في كونها أشدها خطرا وتأثيرا على الريف القسنطيني، حيث تُعتبر أبرز مثال عن الإجحاف الضريبي الذي تعرضت له الأرياف، عُرفت بضيفة العادة باعتبارها مساهمة عينية موجهة إلى تغطية نفقات فرق الانكشارية (المحلة) وجماعات فرق المخزن التي تجوب الأرياف لاستخلاص الضرائب، وإقرار الأمن، وقمع حركات التمرد، وتُأخذ في بايلك قسنطينة على شكل إلزام عيني ونقدي يرمز إلى خضوع سكان المناطق الريفية وتبعيتهم للحكم المركزي، وهذا منذ أن فرضت هذه الضريبة في الربع الأول من القرن 16م[46].

فعند خروج المحلة لجمع الضرائب يُفرض على الرعية استضافة أفرادها، بتقديم اللحم والدجاج والكسكسي والشعير لكل فرق المحلة، وكل هذا بكميات كافية لإطعام الجيش بأكمله بالإضافة إلى تقدم العلف لخيولهم،[47] ويقوم الأهالي بتوفير كل أسباب الراحة لرجال المحلة، وكانت فرق المحلة تختار أحسن الخيام لتشارك الأهالي في الأكل والشرب والسكن.[48] هذا وتُعد الضيافة تبعا للأوامر المتلقاة من الأتراك،[49] فضلا عن الأوامر التي لا تنتهي في حين لم يكن أمام الريفي غير الخضوع لها، إذ لم يتركوا له فرصة الاحتجاج، بل كان يتحمل منهم أبشع

---

[45]_ ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية...، المرجع السابق، ص307.

[46] _ المرجع نفسه، ص 304.

[47] ESTERHAZY : OP.CIT, p 276-277.

[48] PEYSSONNEL: OP.CIT, T2, p 365.

[49] _ شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 66.

الإهانات والإذلال يصل إلى حد الضرب، ولم يكن أمامه غير الصبر وانتظار ساعة رحيلهم عن القرية متمنيا أن لا يعودوا أبدا[50].

"[51] الذي *Peyssonnel* ولعل أبرز مصدر ذكر ضريبة الضيفة هو الرحالة الفرنسي حَضَرَ مسيرة المحلة وعايش أحداثها سنة 1725م، وترك لنا وصفا دقيقا لسيرها والمناطق التي كانت تمر بها وتفرض عليها ما يسمى بالضيفة، فمن خلال تتبعنا لسير المحلة اتضح لنا أنها كانت تمر بالمناطق الصعبة في معظم اتجاهاتها بالرغم من وجود طريق كبير ومباشر، وكان هدف أفراد المحلة من ذلك هو الوصول إلى معظم الدواوير والقرى الصغيرة والقبائل الممتنعة.

هذا ويذكر الرحالة نفسه هروب بعض الدواوير بمجرد وصول المحلة، كدوار زمورة الذي رفع سكانه خيامهم واختبئوا، لكن أفراد المحلة اكتشفوا أمرهم وأجبروهم على منحهم خيامهم وكل ما يلزم للتخييم، وأكرهوهم على تقديم هذه الضريبة لجميع أفراد المحلة، في حين فضل البعض الآخر من السكان اللجوء إلى الجبال التي لا يعرف طريقها غيرهم، تجنبا لإهانات الأتراك من وراء هذه الضريبة، وضرب لنا مثالا "بالسلطان بوزيد"[52] الذي يُسيطر على الجبال الواقعة بأبواب الحديد، هذا الرجل الذي يُفضل السفر إلى الجزائر سالكا طريق الصحراء على أن يتحمل إهانات الأتراك واستبدادهم.

أما عند انتهاء مهمة المحلة فإن السكان كانوا مطالبين بتوفير الجمال والبغال الضرورية لنقل ما جمعت المحلة من ضرائب،[53] وتجدر الإشارة هنا إلى أن ضريبة الضيفة لم تكن تخص الأرياف الجزائرية فقط بل كانت تمس حتى سكان المدن، فهذا ضابط المدفعية الفرنسي

---

[50] _ جميلة معاشي: الانكشارية...، المرجع السابق، ص 91.

[51] PEYSSONNEL: OP.CIT, T2, p 370_374.

[52] أطلق الرحالة لقب السلطان لهذا الشيخ باعتباره يتميز باستقلالية خاصة على الأتراك ولا يدفع الضريبة علاوة على أن معظم الدواوير المجاورة له تحتمي به من هجوم وإذلال الأتراك لهم. أنظر، نفس المصدر، ص ص 367-374.

[53] ESTERHAZY: OP.CIT, p 277.

استرهازي يذكرها بنوعيها، ضريبة ضيفة الباي وضريبة ضيفة خير الدين[54] أو دار السلطان، أما الأولى فهي عبارة عن مبالغ مالية تقدر ما بين 800 إلى 2000 ريال علاوة عن أن كل مدينة كانت تدفع ما يساوي 12 قطيعا من الخيول وأربعة جياد وذلك حسب عدد سكان كل منطقة. في حين قد تُرفع المبالغ المخصصة لضيفة خير الدين ما بين 1500 إلى 3000 ريال والتي قد تُدفع كلها إلى الأغا الذي كان بدوره يسلمها إلى خزينة الباشا.[55] وتجدر الإشارة إلى أن الباي كان يشتري بفضل ضريبة الضيفة جل الهدايا المخصصة لداي الجزائر.[56]

ومن هنا يمكن القول بأن هذه الضريبة تعدت سكان الريف إلى سكان المدن، كما أنها تعدت في تأثيرها الجانب المادي لتبلغ الجانب النفسي، وهو ما يتجلى بوضوح في مشاركة أفراد المحلة لخيام الريفيين وما يترتب عن ذلك من ضغط واستغلال، خاصة إذا علمنا أن الجباة لم تكن لهم قواعد أساسية في جمع الضرائب، بل أينما كانت تحل المحلة يحل معها الخراب والدمار، ويبدو ذلك واضحا أكثر في المرحلة الأخيرة من الفترة العثمانية، حين اضطر البايات إلى فرض مغارم، وابتكار أسماء لأخرى جديدة تُفرض على الريف لتدبير توازنهم بين موارد الصراع ونفقاتهم الخاصة.

---

[54] سميت باسم خير الدين بربروسا بإعتباره أول بيلرباي حكم الجزائر خلال العهد العثماني.

[55] Ibid, 279.

[56] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص 98.

المحاضرة الثالثة: الطرق الصوفية والزوايا في الخريطة السياسية

لقد كانت الزاوية في الأصل تُعّرف على أنها مدرسة ومقر استرشاد ومستودعا مؤمّنا ، ومحلا لإطعام الطعام، وملجأ أمان، بيدا أن هذه الوظائف وبقدر ما كانت تعبر عن أدوار محددة كانت تُخفي في طياتها أسرار تفاعل الزاوية مع المجتمع والسلطة على حد سواء، فأصبحت مكونا ضروريا وقاعدة أساسية في توازن المجتمع.[57] فقد تعوّد شيوخ الزوايا على التبجيل والامتيازات الخاصة كالإعفاء من الضرائب تكريما لهم وتبركا بهم وبذريتهم الصالحة، غير أن هذا الوضع قد تغير مع نهاية الوجود العثماني بالجزائر، خاصة بعد تولي صالح باي على بايلك الشرق الجزائري منذ سنة 1771م، هذا الأخير الذي استحدث عدة أمور أولها توحيد نظام الضرائب وإلغاء الامتيازات لهذه الفئة من المجتمع.

ويبدو أن هذا ما أزعج شيوخ الزوايا الذين كانوا يستفيدون من الإعفاءات على عهد البايات السابقين؛ إذ تسبب ذلك في نقص الموارد التي كانوا يحصلون عليها من عوائد أهالي الريف، كما تعرضت أملاكهم للتغريم والمصادرة. فضلا عن أن صالح باي كونه "جنديا، مُنظِما ومشيّدا"،[58] دائما "على أُهبة الاستعداد للحرب"،[59] قد استحكم في البايلك، ولم يعد بحاجة إلى من يعينه على تطويع الرعية عامة، والمجتمع الريفي بالخصوص، الذي بالغ في استغلاله استغلالا ماديا مجحفا مكنه من إبراز عظمة عاصمته وتحديثها خاصة وأنه كان "مولعا بالأبهة والروعة في كل شيء"[60].

وهذا ما أدى إلى تذمر رجال الدين وشيوخ الزوايا الذين باتوا يزدرون تصرفاته، ويقومون بتوجيه الخطب المعادية له، ويحرضون العامة ضده. ومن أهم المتذمرين من الباي نجد المرابط "سيدي

---

[57] محمد المازوني: وظائف لزاوية المغربية، الجزء الأول، مقال منشور في موقع ارنتروبوس، الموقع العربي الأول للأنتربولوجيا والسوسيو أنترولوجيا، ص1.

[58] رشيد بورويبة : المرجع السابق، ص 117.

[59] VAYSSETTES, E. Histoire de Constantine ..., OP.CIT, p 130.

[60] Ibid, p134.

محمد الغراب" الذي تميز بانتقاداته الحادة وملاحظاته الشديدة تجاه الباي؛ حيث كان أول من تجرأ علنا الوقوف في وجه الباي دون الخوف من العقاب، لأنه كان يعتقد أن سمعته الكبيرة في أوساط المجتمع القسنطيني وشعبيته الهائلة التي تصل لدرجة القداسة ستحميه، لكن الباي حكم عليه بالإعدام بالرغم من توسل رجال الدين له وتم تنفيذ الحكم على مرأى الناس[61].

وقد اقترنت هذه الحادثة بأسطورة غريبة تقول أنه عند ضرب عنق المرابط وسقوط رأسه على الأرض، تحولت جثته المشوهة بالدم إلى غراب، وحلق نحو حديقة الباي وألقى عليه اللعنة.[62] فتأثر صالح باي بهذا الحدث وندم على فعلته وقام ببناء ضريح للشيخ في الحامة. ومن حينها ظل المكان يحمل اسم سيدي محمد الغراب.[63]

ومن الغريب أن هذه الأسطورة الخرافية ظلت متداولة إلى يومنا هذا بالرغم من أن بعض الباحثين[64] قد فصلوا فيها اعتمادا على ابن الفكون في منشوره الذي يرجع إلى سنة 1638م، حيث ذكر فيه:" محمد الغراب المدفون بعين الحامة خارج قسنطينة".[65] وهذا يعني أن قصة سيدي محمد الغراب ترجع ربما إلى القرن 17 م وليس إلى عهد صالح باي.

من جهة أخرى، وبالرغم من مآزرة شيوخ الزوايا لصالح باي في صد هجوم المسيحيين الإسبان، لم يتوانوا عن إظهار معارضتهم الشديدة لسياسة التعسفية تجاه الأرياف. ويعتبر الشيخ "أحمد الزواوي" مثالا حيا على ذلك؛ فقد عبر عن استنكاره ورفضه لهذه السياسة بالرغم من أنه كان

---

[61] Ibid, p142.

[62] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 283.

[63] VAYSSETTES: Histoire de Constantine...OP.CIT, p142.

[64] جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص ص 105_106.

[65] عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 117.

صديقا وناصحا لصالح باي، ولكن ما لبثت هذه العلاقة حتى توترت بسبب تعنت الباي وعدم سماعه للشيخ الذي طلب منه التخفيف من قسوته مع المجتمع الريفي[66].

ويبدو أن موقف هذا الشيخ قد كوّن له قاعدة اجتماعية كبيرة من سكان الريف مما شجعه على الاستقرار في جبل أوزغار وقام بتوجيه الخطب المعادية للباي والتحريض ضده، لذلك قام صالح باي بإرسال محلة تتألف من الأتراك فقط[67] لمحاربة المرابط وأتباعه الذين فروا، وقامت المحلة باجتياح وتخريب المنطقة كلها، لكنها فشلت في إلقاء القبض على الشيخ، لأن أتباعه تمكنوا من تهريبه وإنقاذه. وبمجرد أن علم الشيخ أن أراضيه تتعرض للتخريب أوقد النار في كل القرى الصغيرة التي مر بها، وقد تبعه عدد كبير من المؤيدين سواء من المدينة أو الريف والذين كان عددهم لا يقل عن 3000 رجل.[68]

وتذكر الأسطورة أنهم عندما وصلوا إلى قرية "مشتى النهار" فاجأهم ثعبان كبير جدا فأمرهم الشيخ بقتله لكنهم فشلوا في ذلك، فنزل الشيخ من حصانه ووضع رجله على الثعبان ولواه حتى مات، ثم استدار نحو الحشود المتعجبة وقال بأعلى صوته "الغلبة لله وحده، ونحن عبيده ولا نخشى مخلوق من دون الله"، وأمر كل أتباعه بالعودة إلى منازلهم وتوجه هو أيضا إلى منزله. ومباشرة بعث صالح باي فرقة من الإنكشارية لإلقاء القبض على الشيخ، فسارت الفرقة في الليل لمدة 8 ساعات، وبشروق الشمس وجدوا أنفسهم مازالوا في كدية عاتي فأصيبوا بخيبة أمل، لأنهم لم يفعلوا شيئا سوى الدوران حول الكدية طوال الليل. [69]

---

[66] VAYSSETTES: Histoire de Constantine ..., OP.CIT, p 370.

[67] نعتقد أن سبب إرسال الباي لمحلة تركية فقط دون مشاركة العناصر المحلية فيها دليل واضح على فقدان الباي للثقة في العناصر المحلية من جهة، وأن لهذا الشيخ كرامات كثيرة منحته رصيدا معنويا لا يستهان به في الأواسط الريفية القسنطينية، ومن جملتها العناصر المحلية للجيش من جهة أخرى.

[68] VAYSSETTES: Histoire de Constantine ...OP.CIT, p 143.

[69] Ibid

وبعد مدة قصيرة تراجع الباي عن محاولته لقتل الشيخ وبعث له بعدة هدايا، لكن المرابط قد دعى عليه وعلى أبنائه وعلى عائلة بن زكري باللعنة الإلهية والتي اتهمها بالتحريض عليه.[70] ومع ذلك استمر الباي في عدائه لشيوخ الزوايا فاستولى على جمال زاوية سيدي عبيد، هذا الأخير الذي دعى عنه أيضا وشكاه إلى الداي بالجزائر.[71] وبالتالي فقد كان سخط المرابطين وشيوخ الزوايا عاملا حاسما في زوال سطوة صالح باي، ومن ورائه تضعضع الوجود العثماني بالبايلك من خلال اشتعال الثورات الريفية بقيادة المرابطين كثورة ابن الأحرش ببايلك قسنطينة سنة 1801م.

[70] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 283.

[71] Ibid, p 284.

المحاضرة الرابعة: الثورات على الحكم العثماني بالجزائر.. ثورة ابن السخري انموذجا

كانت ثورة ابن السخري أهم وأشمل ثورة واجهها الحكام العثمانيين منذ بداية حكمهم، ورغم تحولها إلى ثورة عارمة جمعت معظم قبائل البايلك فإن أسبابها كانت شخصية تقف ورائها إحدى الأسر الحاكمة وهي أسرة بوعكاز الذواودة وقد كانت هذه الأسرة، تحتكر مشيخة العرب وتسيطر على صحراء البايلك سيطرة شبه مطلقة الأمر الذي لم يكن يسمح لبايلك قسنطينة بالتدخل في هذه الأراضي أو السيطرة عليها، وفي عهد الباي مراد 1031هـ-1046هـ/1622-1637م كانت المحاولة الأولى للقضاء على نفوذ هذه الأسرة والتخلص من سيطرتها على جنوب البايلك، حيث قام الباي بالقبض على شيخ العرب محمد بن السخري وجماعة من أعيان الأسرة وسجنهم، عندما قدموا إلى معسكره[72] لتقديم ما على الأسرة من ضرائب، ثم أرسل إلى باشا الجزائر "علي باشا" يستأذنه في قتل الشيخ ومرافقيه بتهمة العصيان ومحاولة الانفصال على السلطة المركزية، وبعد وصول الإذن من الباشا والديوان نفذ الباي الحكم في الشيخ وستة من أعيان الأسرة كما قتل إبن الشيخ الذي كان يرافقه، وحتى تكون هذه الأسرة عبرة لغيرها من الأسر التي تتمسك باستقلالها أرسلت رؤوس أعيان الذواودة الستة[73] إلى قسنطينة لتعلق على أسوارها، وكان ذلك يوم الأربعاء 1 صفر 1047هـ/جوان 1638م[74].

بعد وصول خبر اغتيال شيخ العرب ومن رافقه إلى الذواودة، ثارت ثائرة أسرة بوعكاز وعلى رأسها أخ الضحية "أحمد بن السخري" الذي أعلن الثورة على باي قسنطينة مراد للثأر لأخيه، وفي السنة الموالية 1048هـ/1638م زحف بجيوشه على مدينة قسنطينة وقد صادف هذا الحدث آخر بشرق البايلك أثار أسرة أحرار الحنانشة ومن تبعها وهو إقدام السلطة العثمانية على هدم الباستيون الفرنسي بالقالة[75]، والذي كان مصدر رزق لسكان شرق البايلك ومصدر

---

[72] كان الباي يعسكر على بعد 4 كلم جنوب مدينة قسنطينة، في منطقة جنان الزيتون غرب الجامعة المركزية حاليا.

[73] لم تذكر المصادر أن رأسي الشيخ وابنه قد علقا على أسوار المدينة ولعل ذلك كان خوفا من ثورة أبناء أسرة بوعكاز.

[74] Féraud: l'epoque de l'etablissement …, op.cit, p 180.

[75] يعود سبب هدم الباستيون، وهو امتياز فرنسي قديم، إلى تأزم العلاقات الفرنسية الجزائرية بسبب تجاوز الفرنسيين للامتيازات المخولة لهم بساحل القالة والمتمثلة في احتكار صيد المرجان، إلى أعمال تجارية واسعة تم الاتفاق عليها بين القبائل وعلى رأسها أسرة أحرار الحنانشة وبين التجار الفرنسيين بالوكالة الفرنسية، وقد شملت تصدير الحبوب والجلود والشمع والخيول إلى مرسيليا دون علم من السلطات العثمانية. وقد زاد من التأزم في الوضع إقدام الفرنسيين على خطف سفينتين جزائريتين محملتين بالسلع والبارود تقدر قيمتها بـ 12000 ريال، وذلك انتقاما من أعمال القرصنة الجزائرية ضد الفرنسيين. وقد صادف في

ثراء لأسرة أحرار الحنانشة الحاكمة بهذه المنطقة، الأمر الذي جعل زعيم الأسرة "خالد بن نصر"، الذي تضررت مصالحه الشخصية من جراء هذا العمل، يعلن الثورة على الباي مراد ويقوم بطرد الحاميات التركية المتواجدة بمناطق نفوذه كما سيطر على ساحل البايلك بعد أن طرد إلى تونس كل من قبيلة أولاد ذياب ودريد وأولاد نهد المواليين للقائد العثماني "علي بتشين" الذي قام بتحطيم الباستيون بأمر من باشا الجزائر.

وأثناء هذه العملية التشيطية لساحل بايلك قسنطينة انضم إلى الشيخ "خالد بن نصر" (خالد الصغير) العديد من القبائل الجبلية (البربرية) التي كانت في ثورة ضد السلطة العثمانية لنفس السبب وهو ما عرف بثورة فليسة[76] التي اختلطت أحداثها مع أحداث ثورة ابن السخري وتزعمت الأحداث في هذه المنطقة أسرة حاكمة ثالثة هي أسرة المقراني[77].

فقد هاجم شيخ العرب "أحمد بن السخري" قسنطينة من الجنوب الغربي حيث انظمت إليه أسرة المقراني بقواتها بزعامة "بتقة بن ناصر"[78] في حين كانت أسرة أحرار الحنانشة تكبد القوات العثمانية بشرق البايلك الهزيمة تلو الأخرى

وتقول المصادر أن قوات الباي تكبدت خسائر فادحة قبل أن ينسحب الثوار إلى الغرب أما الباي مراد فلم يجد بدا أمام هذه الخسائر، من الالتجاء إلى باشا الجزائر فأرسل إليه وفدا يعلمه بإعلان عرب البايلك لثورة عارمة ويطلب منه النجدة للقضاء عليها قبل أن تصبح خطرا حقيقيا على الحكم العثماني بالبايلك فأرسل إليه "علي باشا" قوتين الأولى بقيادة القائد يوسف والثانية بقيادة شعبان وتتكون القوتان من 200 خباء أي حوالي 4000 رجل وبذلك وصل عدد القوات العثمانية المجهزة لقمع هذه الثورة بالإضافة إلى قوة الباي مراد المكونة من 100 خباء (2000 رجل)، حوالي 6000 رجل[79].

مثل هذه السنة (1047هـ/1637م) الاعتداء على السفينة المقلة للباشا القادم من اسطنبول لتعويض يوسف باشا، الأمر الذي أثار ديوان الجزائر فأرسل حملة بقيادة "بتشين" لهدم الباستيون وأسر 317 فرنسي به. أنظر:

Berbrugger (A): Notes Relatives à la révolte de bensakhri, R.A, 1866, p340.

[76] حول هذه الثورة أنظر، الغالي الغربي: المرجع السابق، ص ص 142-143.

[77] Derdour (H): op.cit, pp 84-85.

[78] Rinn (Louis): Histoire de l'insurection…, p13.

[79] Ibid, p183.

تحركت هذه القوات مجتمعة لتهاجم قوات "أحمد بن السخري" وأتباعه وحلفائه من الأسر الحاكمة بغرب البايلك والتي قدرت بـ 10000رجل[80]، وكان اللقاء بين الطرفين في معركة دامية بمنطقة كجال، بين سطيف وقسنطينة تكبد فيها العثمانيون خسائر فادحة في الأرواح والسلاح؛ إذ قتل العديد من قوات الباي من بينهم كاتبه الأول ومستشاره "شريط بن صولة" الذي تقول المصادر أنه قتل قتلة شنيعة من طرف الثوار انتقاما من صديقه الباي الذي تمكن من الفرار من المعركة ولم يتمكنوا من القبض عليه.[81]

كما غنم شيخ العرب وأتباعه جميع أسلحة ومتاع القوات العثمانية التي انسحبت منهزمة إلى الجزائر ويقال أن "الباي مراد" لم يلتحق بالجزائر ولا بقسنطينة خوفا من انتقام الباشا منه، بل أن "الأب دان" الذي عاصر هذه الأحداث[82] يقول أن القائد يوسف اقترح على الثوار تسليمهم الباي مراد لأخذ الثأر منه شخصيا مقابل تخليهم عن الثورة، كأن هذا الطلب كان قد اتفق عليه من طرف أعضاء الديوان بالجزائر لإخماد الثورة من جهة والقضاء على مراد باي والاستيلاء على أمواله الضخمة من جهة ثانية، إلا أن هذا الأخير تمكن من الإفلات من هذا المخطط بفضل بعض أصدقائه بالديوان وما دفع لهم من أموال[83].

بعد فرار مراد باي من موقعه كجال تسكت المصادر عن ذكر أخبار ومصير مراد باي باستثناء ما جاء في الوثيقة العربية التي نشرها فيرو[84] من أنه توفي[85] إثر هذه المعركة في صفر من عام 1049هـ/ جوان 1639م.

---

[80] Berbrugger (A): Notes Relatives à la révolte de bensakhri, op.cit, p343.

[81] Féraud: l'epoque de l'etablissement …, op.cit, p 184.

[82] كان بالجزائر في سنة 1634م. أنظر:

Berbrugger (A): Notes Relatives à la révolte de bensakhri, op.cit, p342.

[83] Ibid, pp 343-344.

[84] Féraud: Idem, pp 181- 182.

[85] يعتقد أن الشيخ "أحمد بن السخري" أعلن مكافأة كبرى لمن يأتيه برأس مراد باي، ولذلك بقي حسب ما أورده فيرو مثل سائد في منطقة كجال، قرب سطيف يطلق على كل من ادعى الشجاعة والقوة فيقال له:" وهل أتيت برأس مراد باي". وإن كان يقول نفس المصدر أن العديد من البايات بنفس الاسم خاضوا معارك في هذه المنطقة ومنهم مراد باي تونس 1692م. أنظر:

Féraud: Idem, pp 185.

أمام تحدي الأسر المحلية الحاكمة للقوات العثمانية وانتقاما للهزيمة التي لحقت بهذه القوات بمعركة كجال قرر باشا الجزائر العودة إلى بايلك قسنطينة بقوات أضخم للقضاء على هذه الثورة نهائيا, وبما أن الثورة عمت جميع مناطق بايلك الشرق واختلطت ثورة قبائل فليسة بجبال جرجرة بثورة ابن السخري وخالد بن ناصر، فإن باشا الجزائر بدأ بمحاولة لإخماد الثورة بالجبال القريبة من الجزائر والتي تسببت في قطع الطريق الرابط بين الجزائر وقسنطينة، إلا أن القوات العثمانية هزمت مرة أخرى وكادت أن تهلك لولا تدخل مرابطي المنطقة لوضع هدنة بين الطرفين بشروط فرضها الثوار على الباشا لقبول وقف المعارك وهي:

1- عدم مطالبة العثمانيين للثوار بضريبة اللزمة.
2- عودة القوات العثمانية إلى الجزائر دون الرجوع مرة أخرى إلى المنطقة.
3- إعادة بناء الحصن الفرنسي الباستيون وملحقاته.
4- عودة جميع الكراغلة إلى الجزائر واسترجاعهم لجميع امتيازاتهم التي أخذت منهم بعد ثورتهم سنة 1636م.[86]

بعد قبول الأتراك العثمانيين هذه الشروط[87] أعلن المرابط[88] أنه سيتكلف بنفسه بحراسة القوات العثمانية حتى تصل إلى الجزائر وحذر القبائل من الاعتداء عليها، وبذلك عاد الهدوء النسبي إلى هذه المنطقة، وبقيت أرياف البايلك تحت نفوذ الأسر المحلية الحاكمة[89] في حين بقيت مدينة قسنطينة، بعد فرار الباي مراد في حالة الفوضى والاضطرابات وظهر النزاع من جديد بين مؤيد للعثمانيين ومعارض لهم وقد انتهى الأمر، كما مر بنا في بداية الفصل الثاني

---

[86] Berbrugger (A): Notes Relatives à la révolte de bensakhri, op.cit, p345.

[87] بدأ العثمانيون فعلا في تطبيق هذه الشروط وعلى رأسها إعادة بناء الباستيون، وكانت المفاوضات حوله بين الجزائر وفرنسا في 7 جويلية 1640، وتم الاتفاق النهائي النهائي على إعادة بنائه في بداية سنة 1641م. أنظر:

Berbrugger (A):Idem, p345-346.

[88] لم يذكر اسم المرابط.

[89] من خلال الظهائر (جمع ظهير= المراسيم) التي منحت للعديد من الأسر الدينية والمرابطين بمنطقة أولاد عبد النور من طرف شيخ العرب "أحمد بن السخري" وهي مؤرخة في (1055هـ/1645م) و(1062هـ/1651) يتبين لنا أن هذه المنطقة بقيت ولفترة طويلة تحت السيطرة التامة لأسرة بوعكاز الذواودة. أنظر:

Féraud: l'epoque de l'etablissement …, op.cit, pp 186-187.

من الأطروحة، بإرسال الشيخ عبد الكريم الفكون إلى الجزائر لطلب تعيين باي على المدينة ليخلف مراد باي.

في ظل هذه الظروف عاد يوسف باشا[90] إلى الحكم بالجزائر ولإثبات قوته وحفاظا على حياته من انتقام الباب العالي منه في حالة انسلاخ بايلك قسنطينة عن ايالة الجزائر[91] قرر العودة إلى محاربة المتمردين في البايلك، وقبل إقحام نفسه في معارك سبق وأن ذاق هزائمها عمل الباشا على مراسلة رجال الدين والمرابطين بالمنطقة والتأكد من مساندتهم له وكان أول اتصال له بمفتي عنابة الشيخ "محمد الساسي البوني" وذلك في ذي الحجة 1050هـ/مارس 1641م يخبره بأنه ألغى حملته للجهاد ضد الإسبان لتحرير وهران بسبب الثورة التي أعلنتها الأسر الحاكمة بالبايلك ويدعوهم إلى مساعدته على إعادة ثقة الرعية بالحكم العثماني وحثهم على طاعة أولي الأمر كما أخبره بنيته في العودة إلى البايلك لإعادة الهدوء إليه،[92] وقد تبادل الباشا العديد من الرسائل في نفس الموضوع مع العديد من العلماء ورجال الدين منهم "سعيد قدورة" مفتي الجزائر و"عيسى الثعالبي" و"علي بن عبد الواحد الأنصاري" و"عبد الكريم الفكون" وغيرهم.[93]

بعد تهيئة الجو المناسب تحرك يوسف باشا بقواته نحو البايلك، وذلك عن طريقين: قوة سارت عبر البحر إلى عنابة وأخرى عبر البيبان, وكان الباشا على رأس القوة البحرية ومن عنابة اتجه الباشا إلى قسنطينة حيث أقر الأمن وترك الأمور بين أيدي أعيان المدينة وعلى رأسهم شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون ثم تابع سيره نحو الصحراء لملاحقة الثائر ابن السخري، وقام بقتله وبذلك انتهت ثورة ابن السخري التي كادت ان تطيح بالحكم العثماني في بدايته لولا تدخل مرابطي المنطقة.

---

[90] تولى يوسف باشا الحكم عدة مرات، منها الفترة الأولى من 1634 إلى 1637م ثم سنة 1640م بعد خلع علي باشا الذي يبدو أنه حكم من 1637 إلى 1639م. ولعل يوسف باشا دخل السجن عدة مرات بسبب هزائمه المتكررة أمام الثوار. أنظر:

Berbrugger (A):Idem, p349-350.

[91] Vayssette: op.cit, p 103.

[92] Vayssette: op.cit, p 104-107.

[93] أنظر، سعد الله (أبو القاسم): رحلة ابن حمدوش، المصدر السابق، ص 230.